كتب

صدر بالاشتراك بين منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف ودار الأمان وكلمة للنشر كتاب «الهجرة إلى الإنسانية» للباحث والمفكر التونسي فتحي المسكيني.

صدر أخيرا عن منشورات الجمل كتاب بعنوان «رقائم لروح الكون»، وهو عبارة عن مختارات شعرية قام بترجمتها الشاعر العراقي الراحل سركون بولص.

«نور» رواية عن المرأة العربية في المعتقل الكبير

● يوسف زيدان: أطرح تساؤلات كبرى للكشف عن جوهر الإنسان

أنا لا أقدم نصوصا مغلقة

"الإنسان سؤال لا إجابة. وكلُ وجود إنساني احتشدت فيه الإجابات فهو وجود ميت. وما الأسئلة إلا روحُ الوجود. بالسؤال بدأتِ المعرفة وبه عرف الإنسان هويته. الإجابةُ حاضرٌ يحاصر الكائن، والسؤالُ جناحٌ يحلق بالإنسان إلى الأفق الأعلى من كيانه المحسوس ، بهذا التحريض على السؤال كتب الروائي والمفكر المصري يوسف زيدان روايته الأولى "ظل الأفعى" ليظل السؤال هو هاجسه الأول والأهم في أعماله الروائية، فهو لا يكف عن طرح تساؤلاته الفكرية في أعماله التالية لعمله الأول سواء كان ذلك في "عزازيل" التي حازت على جائزة البوكر عام 2009، أو في ما تلاها من أعمال روائية مثل "النبطي"، وثلاثيته "محال"، "جونتنامو"، وأخيرا "نور". "العرب" حاورت زيدان حول ثلاثيته الروائية وبالأخص الجزء الأخير منها "نور" الذي ألقى من خلالها الضوء على الكثير مما تعانيه المرأة في المجتمعات العربية.

حنان عقيل

❑ في ثلاثيته "محال"، "جونتنامو"، وأخيرا "نور"، يخوض زيدان نوعا مختلفا من التجريب عما سبق أن بدأه في أعماله السابقة التي غلب عليها الطابعان التاريخي والميثولوجي، ليُقدم قراءة فلسفية وفكرية في الواقع الراهن للإنسان العربي أو ربما تصويرا لحيرته وبؤسه وشعوره بالضياع.

بداية، تحدث زيدان عن ثلاثيته والأسباب الفنية والأدبية لاختياره شكل الثلاثية في الكتابة قائلا "الشكل الذي يتخذه العمل الأدبي هو إحدى الأدوات التي يلجأ إليها المؤلف كي يعطي نصا مناسبا لما يريد أن يقول، ليس هذا في الأعمال الروائية فحسب وإنما أيضا في سائر الأشكال الإبداعية والأعمال الأدبية".

الروح الحائر

في "محال"، و"جونتنامو"، و"نور" لا توجد أجيال متعاقبة ولا توجد فترة زمنية ممتدة نضطر إلى تقسيمها إلى مراحل، كل ما في الأمر أن الرواية الأولى تحكي بلسان الراوي العليم عن الشخصيتين الرئيسيتين: الفتى والفتاة اللذين يمثلان الروح الحائر عند الإنسان العربي في مرحلة الشباب، فكان الهاجس الرئيس والفكرة المحورية للرواية الأولى التي يمكن أن تُقرأ منفردة أو في تكاملها مع الروايتين التاليتين: الضياع الذي يواجه الإنسان العربي في هذه الفترة الزمنية الممتدة من بداية التسعينات إلى وقتنا الحالي.

الأحداث الروائية في الرواية الأولى "محال" تدور في الفترة الممتدة ما بين بداية التسعينات إلى بداية الألفية الجديدة، وتركز على صلة الإنسان بالمكان والضياع الذي يواجه البطل ممثلا لشريحة كبيرة من الشباب العربي. أما الخطاب الأساسي في الرواية الثانية "جونتانمو" فمفاده أن الحبس يكون للأجسام إنما لا حدود للأرواح التي تُحبس، فالبطل يخوض تجربة الاعتقال وتمارس عليه الأفعال التي ارتبطت في أذهاننا بمعسكر غوانتانامو الشهير وتعامينا عن أن ما يحدث في معتقلاتنا أشد وأنكى.

كانت هذه أول صدمة على مستوى الوعي بالنص قبل كتابته والتجهيز له، ثم لاحظ زيدان أن معظم الذين خرجوا من معتقل غوانتانامو وعانوا من هذه التجربة البشعة عادوا إلى الحياة واندمجوا فيها وتجاوزوا هذه الفترة، وكان السؤال المُلح هنا كيف يستطيع الإنسان أن يعبر تجربة مثل هذه؟ لا بد أن لديه طاقات معطلة تُستعمل في مثل هذه الظروف، طاقات ربما لا تسمح لها مجتمعاتنا بالتحرك مثل القدرة على الخيال وإعادة قراءة النصوص مثلما فعل البطل مع نصوص القرآن الذي كان يحفظه، لكنه خرج منه برؤى جديدة خلال تلك الفترة، الحلم الذي لا يمكن حبسه مهما كان طالما هناك وعي إنساني.

وعن طريق هذه القدرات استطاع هؤلاء أن يعبروا من أشد وأنكى التجارب التي يتعرض لها الناس في الكثير من الأحيان.

وكانت عند ضيفنا أسئلة أخرى قبل الكتابة، مثل كيف أستطيع أن أتمثل شعور البطل، وهذا عالجه بطريقته الخاصة عبر عملية انعزال تام طوال فترة الكتابة ومعايشة اللحظات التي يتعرض لها السجناء مثل لحظة التعرض للشمس ليستطيع أن يقترب من شعور البطل في الرواية، وكان هناك تحد آخر هو أن يكتب رواية على لسان البطل قد تُصنف ظاهريا على أنها من أدب السجون، لكنها في واقع الأمر نص يحتفي بالحرية الإنسانية وهذه مفارقة كبرى.

يستطرد زيدان في حديثه عن الجزء الأخير من الثلاثية قائلا "في الرواية الثالثة 'نور' الفتاة التي عانت بشكل لا يقل عن معاناة الشاب في المعتقل، ولكنها في المعتقل الكبير، معتقل المعتقد والتقاليد الموروثة والإمكانيات المُهدرة وإشكالية العلاقة بين الإنسانية المؤنثة والسماء، وهذه الرواية قد تصنف ظاهريا على أنها نسوية لكنها في حقيقة الأمر رواية فلسفية لأنها تناقش الموضوعات الثلاثة الأساسية في الفلسفة وهي؛ الله والعالم والإنسان.

'نور' كتابة فلسفية عن الفتاة نورا وأصداء هذه الموضوعات الفلسفية عليها، من هنا جاء شكل الثلاثية لأسباب فنية ولتكتمل الرؤية، فإن تمت قراءة الروايات منفصلة كان لكل منها خطابها الخاص وإن قرأت مكتملة من أي نقطة بدأنا منها ندخل إلى الدائرة التي تجمع الروايات الثلاث، الدائرة تنتهي حيث تبدأ وتبدأ حيث تنتهي فهي محيطة بتفاصيل حياتنا وإشارة أخرى إلى أننا جميعا داخل الدائرة".

الأنوثة المستعبدة

في روايته الأخيرة "نور" خطابٌ أنثوي مناهض لكل ما تعانيه المرأة العربية من استعباد وقهر، فها هي نورا فتاة مثقفة حالمة تسعى للتحقق والتحرر وترفض استغلالها تحت أي مسمى، تعاني من قهر مجتمعي مستحقر للأنثى ومشته لها في الوقت ذاته، وهي في الرواية جزء من سلسلة أنثوية وضعها المؤلف في ثلاثة أجيال لا تختلف كثيرا عن بعضها، بعضهن تأقلم مع النسيج المجتمعي وصرن جزءا منه، والأخريات سقطن في "اللامعيارية" أو اخترن "الهجرة".

وهنا يقول زيدان "الأجيال الثلاثة النسائية ليست منفصلة، فلم أتحدث عن جيل مستقل عن آخر، وإنما التفاعل جار اجتماعيا وبالتالي فكريا وإنسانيا، عندما تتفاعل هذه الأجيال معا تنتج صورة إنسانية وبالتالي تعكس حال الإنسان في جانبه الأنثوي وتفصح عن دقائق علاقته بالعالم وبالآخر وبالسماء".

> «نور» قد تصنف على أنها رواية نسوية لكنها فلسفية تناقش موضوعات أساسية في الفلسفة وهي الله والعالم والإنسان

نسأل ضيفنا هل سيرى الجيل الثالث من النساء ممثلا في الطفلة نور بصيصا من النور في المستقبل؟ ليجيب زيدان "الشواهد الواردة في الجزء الأخير من الرواية تدل على أن المرأة حتى ذلك الحين استطاعت أن تكسب رهانها على ذاتها وذلك في حدود العام 2010 وقبله بقليل، ما جرى بعد ذلك هو قصة أخرى، لكن قصتها تفسر الكثير مما نحن فيه الآن، ولا نستطيع أن نفهم ما نعيشه الآن إلا إذا رجعنا لنرى ما جرى في العشرين سنة الأخيرة بقراءة الوقائع والغوص في دلالاتها الخفية.

رؤى القارئ

في رواية 'نور' الأنوثة المتآمر عليها والمراد القضاء عليها واشتهائها في ذات الوقت، فهي المُستعبَدة المطلوبة. المستبعَدة المخشي منها. المشتهاة والمسجونة، هذه التناقضات تحملها المرأة العربية وتسير بها في زماننا هذا الرديء، الذي لا هو يتحرر فينطلق ولا هو يموت فيستريح".

النهايات المفتوحة خيارٌ مُفضّل بالنسبة إلى يوسف زيدان في أعماله الروائية، فهو قليلا ما يضع نهاية محددة لنصه، إذ تحمل النهايات عنده الكثيرا من الرؤى التأويلية. في "نور" تجد البطلة ثلاثة اتصالات فائتة على هاتفها وتفكر في من ستعاود الاتصال، هل تلك الاتصالات أو الخيارات المطروحة أمام نورا في نهاية الرواية هي ذاتها الخيارات التي نحن بصددها الآن في العالم العربي، النكوص نحو تيارات ظلامية تحبس العقل العربي في سجون الماضي أو الانزلاق نحو الحداثة بالاقتلاع الكامل من الجذور العربية أو خيار ثالث غير مذكور وربما هو الأفضل؟ يجيب زيدان "هذه كلها رؤى القراء، وهي جزء من هدفي في إشراك القارئ في النص وإفساح المجال له لأن يضفي من ذاته الواعية فيكتمل النص بداخله فأنا لا أُقدم نصوصا مغلقة، أقدم تساؤلات كبرى بلغة أجتهد لأن تأتي على مستوى من النصوع لتنفض الغبار عن اللغة التي نتداولها اليوم وحالها المتردي، وغرض أهم من ذلك كله هو الكشف عن جوهر الإنسان، فكان جزء من التكنيك الروائي هو إشراك القارئ في الأمر، هو ليس محايدا ولكنه جزء من النص يتفاعل معه في رؤاه ويتشارك في وضع نهايته".

في رواية "نور" نحتُ لتفاصيل دقيقة في حياة الأنثى وغوص عميق في مشاعرها وأفكارها، وهي في باطنها رواية نسوية تتفوق على الكثير من الكتابات النسوية النسائية، ويشير زيدان إلى أنه عانى كثيرا في كتابة الرواية ولذلك تأخرت، فعادة ما تستغرق كتابة الرواية منه شهورا في حدود العشرة أو السنة، لكن "نور" استغرقت كتابتها عامين كاملين، لأنه ليس من السهل التعبير بلغة أنثوية عن مشاعر الأنثى خاصة أنها ليست مشاعر فتاة بسيطة كما هو الحال في رواية "النبطي"، ولكنها فتاة مثقفة وواعية بشكل عميق بما يجري حولها، وبالتالي كانت لغة الرواية تمثل صعوبة عالية اقتضت أن يعيد الكتابة أكثر من مرة، وعمل اختبارات قراءة متعددة، مضيفا "مثلا المشهد الخاص بواقعة اغتصاب صديقتها أمل كتبته أكثر من عشر مرات وكنت كلما انتهيت من كتابته أقرأه على فتاة ثم امرأة ناضجة ثم رجل لأتأمل انعكاس النص على مرآتهم، فإن لم أجده يمس أعماق السامع أتركه وأعيد كتابته من جديد هادفا للوصول باللغة إلى القدر الذي تستطيع معه التعبير عن هذه اللحظة المريعة التي قد يكتفي الناس بإدانتها على نحو إجمالي، لكن لا يستشعرون مقدار القبح فيها. هذا عبء على اللغة وعلى التأليف للوصول بالمشهد إلى المستوى الذي ينعكس فيه بقوة على مرآة القارئ".

> هدفي هو إشراك القارئ في النص وإفساح المجال له لأن يضفي من ذاته الواعية فيكتمل النص بداخله

النبرة السياسية

في الجزأين الأول والثاني من الثلاثية تعالت النبرة السياسية بشكل واضح، تعرض فيها المؤلف للكثير من القضايا السياسية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، لتتقلص المساحة الممنوحة لذلك الشأن في الجزء الأخير "نور"، وهنا يوضح زيدان أن الأحوال السياسية الجارية لن تفسرها السياسة وإنما تفسرها على نحو أدق الحالة الإنسانية العامة المتجلية في رواية نور، فالعبرة ليست بالمساحة التي نعطيها للهم السياسي، ففي صفحتين أو ثلاث فقط في نهايات رواية "نور" مفتاح لفهم ما لا حصر له من وقائع سياسية كانت تجري أو جرت بعد ذلك، ولا يمكن فهمها إلا انطلاقا من حوارها الأخير المُطوّل مع حبيبها الأول.

ويضيف "لم أهاجم قط الثورات العربية في الثلاثية أو غيرها. الثورات العربية انطلقت من ظروف موضوعية فكانت شرارتها الأولى منطقية ومبررة تماما، ولكن سرعان ما تدخل في المشهد أصحاب المصالح من الداخل والخارج، وتصارعت المصالح الخفية في معظمها فخرجت الثورة عن مفهوم الحركة الاجتماعية إلى ما انتهى إليه الحال في البلاد العربية التي ثارت ودفعت الثمن باهظا لتزداد الشعوب العربية خضوعا ويصبح على المواطن أن يقبل ما هو فيه وإلا فالنتيجة كما رأينا في البلاد التي انهارت، فإذا بالبلاد التي ثارت تعاني بعد الثورات من قهر أنكى وأشد".

يوضح زيدان في ختام حديثه أنه يسعى من خلال الكتابة إلى الارتقاء باللغة والوعي العام. هذا النوع من الكتابة التي يسعى إليها هو أحد تجليات الثورة الثقافية التي كتب عنها في مقالاته، مفسرا "الثورة رغم أنها لا يقوم بها شخص واحد، إلا أنها يدعو لها شخص واحد، قد تنجح دعوته وقد يتم وأدها، قد يلتقط الناس منه الخيط وقد تنقطع عنهم السبل، لكنني أقوم بدوري.. أقول كلمتي وأمضي مثلما فعل الأوائل".

كتب صنعتني

مذكرات بابلو نيرودا

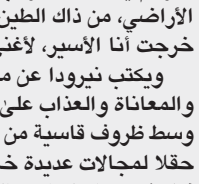

عواد علي
كاتب من العراق

❑ في مفتتح قصيدته "الميلاد" يقول بابلو نيرودا:

أطل إنسان على الدنيا/ وسط كثيرين/ ممّن اجتازوا المخاض/ خاض غمار الحياة، وسط فيض من البشر/ ممّن ضربوا مثله في شعابها.

وتكشف مذكراته، التي ترجمها محمود صبح، وصدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، أنه عاش بالفعل حياته بكل منعطفاتها: مرارتها وحلاوتها، فقرها وثراؤها، سكونها وصخبها، فحق عليه أن يذيّلها بعبارة "أعترف بأنني قد عشت".

في النصف الثاني من السبعينات، قرأت تلك المذكرات، بتوجيه من صديق أديب ينتمي إلى جيل أسبق من جيلي، عايش "جماعة كركوك"، فبهرتني كثيرا، وعشقت صاحبها، وأعدت قراءتها بعد سنة، ولا تزال فقرات منها عالقة في ذهني، خاصة مغامرات نيرودا مع لوركا.

يتحدث نيرودا في الفصل الأول من مذكراته، عن ذلك العالم الذي ولد فيه وترعرع وشب ونما، واصفا إياه، بأسلوب شعري، بأنه عالم شاقولي، أمّة من العصافير، حشد من الأوراق، حيث يجتاز الغابة المملوءة بأشجار السرخس التي يزيد علوها عن قامته، تدع أن يسّاقط عليه، فوق وجهه المشرئب. "من لا يعرف الغابة الشيلية فهو لم يطأ هذا الكوكب الأرضي. من تلك الأراضي، من ذاك الطين، من ذاك السكون، خرجت أنا الأسير، لأغني عبر الكون".

ويكتب نيرودا عن مرحلة الدراسة الأولى، والمعاناة والعذاب على درب تحصيل العلم وسط ظروف قاسية من الفقر. كانت المدرسة حقلا لمجالات عديدة خلال أعوامه الستة، فكل شيء كان له احتمال المجهول. وحين أخذ ينمو جسدا وعقلا صارت الكتب تثير اهتمامه، وتجول روحه عبر مناطق الحلم في حماسة "بوفالو بيل" (ممثل مسرحي وبطل فولكلوري أميركي)، وفي رحلات "سالغاري" (أكبر أدباء المغامرة في إيطاليا).

أما أول تجربة حب له فقد بدأت مع بلانكا ويلسون، ابنة حداد البلدة الشهير، وكان يكتب لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي باسم صبي آخر، يعتقد بأنها ربما كانت باكورة أعماله الأدبية. بعدئذ تعرّف إلى شاعر اسمه ألفونسو وينز، عمّق نهمه الأدبي من خلال الكتب التي كان يزوده إياها، منها كتب لأبسن وروكامبل، فيلتهمها دون تمييز كما النعّامة.

ويمضي نيرودا في الحديث عن ظروف الأسى والفقر والكفاح في سبيل حياة أفضل، والتسلح بالعلم والمعرفة في مواجهة الحياة والأعباء "حياة الطلبة في غرف الإيجار، خلال تلك السنين العجاف، كانت جوعا على جوع. كتبت شعرا أكثر مما كنت كتبت من قبل، لكنني كنت آكل أقل بكثير...". ويعترف بأنه التجأ إلى الشعر في سرعة الخائف الوجل، يكتب في اليوم قصيدتين أو ثلاثا أو أربعا، فجمعها لتنشر في ديوانه الأول "شفقيات" وهو في عمر الـ19 سنة. وقد اضطر إلى بيع أثاثه القليل وساعته وبدلته ليسدد تكاليف طباعته.

ثم يتحدث نيرودا في الفصول التالية من مذكراته عن الأحوال الاقتصادية، وأوضاع الحياة العامة في شيلي، ومشاركته في الحركة السياسية الشعبية، واصطدامه، مع زملائه الطلبة والعمال، بالشرطة أثناء مظاهراتهم في شوارع سانتياغو، وعن امتزاج السياسة في شعره وحياته، والأصداء التي تركتها شهرته حينما بدأت تنمو، وردود الفعل لدى الناس والحركة الثقافية، وعن عمله قنصلا لبلاده في عدد من بلدان أميركا اللاتينية، ولقائه في العاصمة الأرجنتينية بيونس آيرس بالشاعر لوركا، الذي حضر للإشراف على إنتاج مسرحيته "عرس الدم"، والمتاعب التي واجهاها من طرف خصومهما، وكذلك مغامراتهما مع النساء. ثم عن اغتيال لوركا، وعن تجربته الحزبية، والمرات العديدة التي جرى فيها ترشيحه لجائزة نوبل، والمتاعب التي سببها له ذلك الترشيح، وفوزه بها عام 1971. ويختم نيرودا مذكراته بالحديث عن إنجازات تلك الشخصية المجيدة للشعب التشيلي خلال فترة رئاسته.

إنني في الوقت الذي أستعيد فيه قراءتي لهذا الكتاب الفذ، الذي قلّ نظيره بين مذكرات الأدباء، أستحضر أيضا أشعار بابلو نيرودا ومسرحيته "تالق جواكان موريتا ومصرعه" المترجمة إلى العربية، وأتوق إلى قراءتها مجددا.

بابلو نيرودا، أشهد أنك قد عشت بالفعل، وتركت بصمتك على الثقافة الإنسانية، ومازلت حيا في ضمائرنا.